الدرس الحادي والعشرون

يونان

يونان يتعلم درساً

تمهيد

لو قُدر لك أن تسأل أشخاصاً كثيرين عن الموضوع الرئيسي لسفر يونان، فإني أعتقد أن معظمهم سيقول إنه يدور حول توبة نينوى. غير أن كاتب السفر لم يفرد إلا أصحاحاً واحداً من أصحاحاته الأربعة لموضوع توبة نينوى. أما الأصحاحات الثلاثة الأخرى فتتناول عمل الله في حياة يونان. نرى في الأصحاح الأول تمرد يونان، ونرى في الأصحاح الثاني تأديب الله له، وفي الأصحاح الثالث نرى توبة نينوى، أمّا في الأصحاح الرابع والأخير فنرى أن الله يؤدب يونان مرة أخرى ويعلّمه درساً ثميناً. ويقودني هذا إلى الاستنتاج أن موضوع السفر الرئيسي هو يونان نفسه وما لزم أن يفعله الله لكي يغيّره. وليس أمراً مفاجئاً أن يحمل الأصحاح الرابع والأخير مفتاح الرسالة الرئيسي لهذا السفر. وتشكل المادة التالية موضوع عظة ألقيتها يوماً حول الأصحاح الرابع من سفر يونان في المؤتمر الإرسالي الصيني في مدينة باجيو في الفلبين في كانون الأول من عام 1983. وأنا أقدمها هنا لتخدم غرضين: 1) أن تبين الرسالة الرئيسية للسفر، و2) أن تبين كيفية الكرازة به.

مقدمة

أ. قصة

إحدى هواياتي هي ممارسة كرة المضرب الأرضية (التنس). وقد كُنتُ أقدّر منذ أن كنت ألعب ضمن فريق مدرستي الثانوية فرص قضاء فترة مشمسة دافئة على ساحة الملعب. وأنا آمل أن يتعلم ابناي ذات يوم هذه اللعبة التي أحببتها كثيراً. أمّا الآن فإنهما أصغر من أن يمارسا اللعبة (إذ عمراهما 4و6). غير أني أردتهما أن يتعلّما التناسق اللازم لضرب الكرة. فأخذت حبلاً طويلاً، وعلّقت أحد طرفيه على سقف عالٍ في مدخل بيتنا، وربطت طرفه الآخر بكرة تنس. ثم أعطيت ابنيّ مضرباً صغيراً وطلبت منهما أن يتدرّبا.

تتدلى الآن تلك الكرة من ذلك الحبل 24 ساعة يومياً، طوال الأسبوع. لكن هل تعرفون أكثر وقت يرغبان فيه في اللعب؟ إنه الوقت الذي يلعب فيه الآخر! "الدور لي" "المضرب معك منذ وقت طويل." "أنت لا تدعني ألعب أبداً." هل تبدو هذه العبارات مألوفة لكم؟ إن الفرصة متاحة لأن يلعب كلاهما وأن يضربا الكرة قدر ما يريدان. لكن تشتد رغبة أحدهما في اللعب حين يحمل الآخر المضرب. فقد

كان الواحد منهما يمقت أن يرى أن الدور قد أتى على الآخر وأنه يستمتع بوقته، رغم أن لدى الاثنين كلَّ المجال للعب كما يحلو لهما. ونحن نسمي هذا بخلاً أنانياً.

ب. علاقة الأمر بيونان

إن البخل الأناني مشكلة حقيقية لدى صغار الأطفال. ولسوء الحظ فإن هذه المشكلة لا تختفي مع تقدّم العمر. فلدينا مراهقون بخلاء بالإضافة إلى الأطفال البخلاء. ويتحول المراهقون البخلاء إلى طلبة جامعيين بخلاء. حتى إنه يوجد أشخاص بالغون كبار على نفس الدرجة من بخل طفل في الخامسة من عمره. وأنا متأكد من أنه ليست لديّ مناعة ضد هذا الأمر. لكني لست وحدي في ذلك، فهنالك مؤمنون آخرون بالمسيح سيعترفون إن كانوا صادقين مع أنفسهم، بأنهم ما يزالون هم أيضاً مصابين بهذه الخطية البشعة.

لا أود أن أعطيكم انطباعاً في هذا اليوم أن محاضرتي تدور حول البخل الأناني، لكن لهذه المسألة صلة بعظتي اليوم، إذ يمكن للمؤمنين بالمسيح أن يكونوا بخلاء في ما يتعلق برحمة الله. ويونان نفسه كان بخيلاً في ما يتعلق برحمة الله. استطاب رحمة الله له، غير أنه ازدرى بفكرة تذوُّق أهل نينوى لرحمة الله ورأفته. وكان هذا هو سبب هروبه من الله في الأصل. لم يكن يخشى أهل نينوى (رغم أنهم كانوا شعباً شرساً). ولم يكن شخصاً ضعيفاً يفتقر إلى القوة اللازمة لقطع المسافة الطويلة إلى نينوى. ولا أعتقد أن سبب ذلك هو خشيته من رأي بني جنسه "اليهود" فيه. وبطبيعة الحال، فإن أهل نينوى لم يكونوا يستحقون أية نعمة من الله، مثلهم في ذلك مثل البشر جميعاً. فلا أحد يستحق نعمة الله، وهذا هو ما يجعل النعمة مختلفة عن الاستحقاق. لقد أرسل الله يونان لأن قلبه الإلهي كان يتوق إلى أن تعود هذه المجموعة الغفيرة الهالكة إليه ما دام هنالك فرصة لكي ينجوا من دينونته. لكن يونان لم يشارك الله نظرته إليهم، إذْ لم تكن لديه رحمة الله أو رأفته. ولا يصل السفر إلى خاتمته إلى أن يدرك يونان حقيقة رحمة الله ورأفته. ولهذا فإني أريد أن نمضي آخر جلسة لنا معاً في التركيز على الإصحاح الرابع من سفر يونان. لم تكن أعظم عظه في هذا السفر هي تجديد أهل نينوى، بل كانت التحوّل أو التغيير في النبي نفسه. فالله يواجه مشكلة أكبر في يونان من تلك التي يواجهها مع أهل نينوى.

والدرس الذي تعلمه يونان هو رسالة الله إلينا:

يجب أن ينزاح بخلنا الأناني برحمة الله لكي يفسح المجال لرأفته غير المحدودة تجاه الهالكين!

يونان يكرز برسالة الله (أصحاح 3)

أود أن أقرأ الأصحاح الثالث قراءة سريعة مُبدياً بعض التعليقات عليه. وبعد ذلك سأنتقل إلى الأصحاح الرابع. في الآية الأولى تبرز كلمة "ثانيةً" بقوة. فإلهنا هو إله الفرصة الثانية! كان الله قد سبق أن تراءف على يونان، لكنه خذل الله بطريقة سيئة. بل كاد أن يتسبب في

موت مجموعة من البحّارة الأبرياء عندما خرج عن إرادة الله. تقودني دراستي لسفر ليونان إلى الاستنتاج أنه عندما هرب يونان من "وجه الرب" أي من حضوره، فإنه كان يودّع خدمته إلى الأبد (وأعتقد أنه كان يعني ذلك).

تطبيق

لا يوجد في هذه الغرفة مؤمن بالمسيح لم "يفسد الأمور" في مرحلة أو أخرى. وربما تكون قد أفسدت الأمور إلى درجة لا تعتقد معها أن الرب سيستخدمك مرة أخرى. دعني أقل لك شيئاً؟ لستَ أول من يراودك هذا الإحساس. فقد أحس الرسول بطرس نفسه هذا الإحساس عندما أنكر الرب ثلاث مرات. وقد تعثرتُ في حياتي المسيحية مرّات كثيرة. وقد وصلت إلى نقطة أحسست عندها أني أفسدت حياتي كثيراً إلى درجة لم أعتقد معها أن الله يمكن أن يستجيب لي. فإن كان هذا هو إحساسك الآن، فإنك لست أول من يحس به. فما دمتَ حياً، سيظل الله إله الفرصة الثانية. ويبدأ الرجوع إليه باعتراف مخلص وتوبة حقيقية. إنه قادر على أن يردّك إليه!

لنواصل الآن حديثنا لنرى كيف يستخدم الله نبيّه الذي ردّه إليه (3: 2–10). حين وصل خبر الدينونة الوشيكة إلى مسامع ملك نينوى، كان لسان حاله يقول: "من يدري؟" وأنا أفترض أنه استدعى وزراءه والمسؤولين إلى مكتبه من أجل عملية تقويم للوضع المتأزم، بعد أن أعلن يونان عن الدينونة. وبينما وقف هؤلاء الرجال متجهّمي الوجوه حول طاولة الاجتماع، أعرب الملك عن وجود أمل. واعتقد أنه كان لديه سبب وجيه لذلك. فقد قال يونان: "بعد أربعين يوماً." ولا شك أنه سأل نفسه عن سبب إعطاء الله أي وقت له أصلاً. ولا شك أنه اعتقد، وكان محقاً في ذلك، أن الله كان يقدم لهم فرصة للتوبة. وإلاّ، فلماذا يزعج الله نفسه بإرسال نبي لتحذيرهم؟ فقد كان يمكنه أن يرسل دينونة دون سابق إنذار. وإن حقيقة إعلان الله عن دينونة وشيكة لدليل في حد ذاته على أنه إله رحمة يفرح بالتوبة أكثر مما يفرح بالدينونة. وبعد قرون قام الرسول بطرس بالاستنتاج: "لا يتباطأ الرب عن وعده كما يحسب قوم التباطؤ، لكنه يتأنى علينا. وهو لا يشاء أن يهلك أناس، بل أن يقبل الجميع إلى التوبة." لله مختاروه، وهو لن يتوانى عن جلب آخر واحد منهم إلى أمان الخلاص في المسيح. لن يصاب الله بالفزع في اللحظة الأخيرة السابقة لعودة يسوع. إذ سيكون قد أحضر كلّ واحد من مختاريه إليه.

تحوّل

إن إعطاء فرصة للتوبة لأمر يسرّ الله، فهو إله رحمة. لكن ماذا عن يونان؟ هل هو متحمس لأن يرى الآخرين مشمولين برحمة الله، أم أنه بخيل في ما يتعلق برحمة الله؟ ليست ذروة السفر توبة نينوى. صحيح أن الحملة التبشيرية قد تمت بنجاح. وأن أعداداً هائلةً من الناس

قد تابت، لكن ما تزال هنالك ذروة أعظم قادمة في السفر. فالسفر الذي بدأ بيونان والله، قد عاد الآن إلى يونان والله. أمّا نينوى فيجب أن تختفي من الصورة. وبالفعل فإن توبة نينوى في أيام يونان أمدّت كثيراً في حياة هذا الحصن الآشوري. بل إنها ستدوم أكثر من مئة عام. إذ لم تسقط نينوى بشكل نهائي إلاّ في عام 612 ق م. أمّا في هذه الأثناء، فقد انتهى عمل الله مع نينوى. لكن عمله في حياة النبي نفسه لم ينتهِ بعد!

أ. استياء يونان من رحمة الله (4: 1–4)

عندما نصل إلى الأصحاح الرابع، قد نصدم حين نكتشف أن هذا النبي العظيم القديم ما يزال بشرياً جداً. إذ تظهر هنا مشاعره الحقيقية، حيث اغتمّ غمّاً شديداً (4: 1). ويفيد التعبير العبري المستخدم الإحساس بنار تحرقه نوعاً ما. فهل يبدو لكم غريباً أن هذا الرجل خادم ربنا قد خاب أمله في نتائج حملته التبشيرية في نينوى! فما سبب هذا؟ نرى الجواب في صلاة يونان في الآية الثانية. أصغ إلى كلماته التي تكشف الكثير: إنه يعلم أن الله رحوم ورؤوف. لكن قلبه لم يتشرب هذه المعرفة بعد. قال فرانك جابلين: "لم يكن يونان قد تعلّم بعد أن يتجاوز في نظرته أفق شعبه إلى سعة رحمة الله".

تطبيق

نعم. رحمة الله واسعة. وهي تتجاوزنا، وتتجاوز عائلاتنا، وتتجاوز أبناء جنسنا، وتتجاوز أبناء بلدنا. فهناك أخوّة أوسع من البشر على الأرض لا يملك جميع الناس عيوناً لرؤيتها. فلا يجب أن تُحدّ رحمة الله. هنالك تصريح في كتاب الحكمة الأبوكريفي يعبّر عن حقيقة: "كما هو جلاله، كذلك هي رحمته!" تشهد كل الخليقة على جلال الله، لكنه رحيم بقدر ما هو جليل! فرحمة الله هي للجميع. وحين نأتي "كما نحن" إلى الصليب ونجد الغفران في يسوع، فإننا نصبح جزءاً من عائلة الله التي لا يُمنع أحد من الدخول إليها. ومع حياتنا الجديدة في المسيح نجد أن مواطنتنا أو جنسيتنا هي في السماء. فكوني أمريكياً بالمولد يصبح الآن أمراً ثانوياً بالنسبة لحقيقة كوني أولاً وقبل كلّ شيء مؤمناً بالمسيح.

توضيح

نشأت في بلدة محافظة في ولاية تكساس. وهي بلدة، كبلدانٍ كثيرة غيرها، لم تتخلص بعد من تحاملها على السود في أمريكا. وأنا أذكر بوضوح أني نشأت في مجتمع لم يكن مسموحاً فيه للأطفال السود بأن يذهبوا إلى نفس مدرستي. ولم ينتهِ هذا التحامل إلاّ بعد أن كبرت. وأنا أذكر كل الأشياء التي كان البيض يقولونها عن السود، كما لو أنهم كانوا بشراً أدنى منهم. وعندما كنت في الحادية والعشرين من عمري قبلت الرب يسوع وأنا في سنتي الجامعية الثالثة. وبعد سبع سنوات تشرفت بالخدمة في ليبيريا في

غرب إفريقيا. وهناك قابلت فتى إفريقياً أسود. وتطورت بيننا صداقة وثيقة. كان لديه جوع لمعرفة حقائق كلمة الله. فرحت أعلّمه عدة ساعات أسبوعياً الأمور التي تعلّمتُها وكُنتُ أقدّرُها. وما زلت أتصل به حتى هذا اليوم. وقد تلقيت منه هذه الرسالة التالية مؤخراً:

" أرسل إليك تحيات مباركة وجميلة مني أنا، ابنك وأخاك في المسيح، الذي يسكن في ليبيريا، ويحن إلى أن يسمع منك دائماً عن كل أمورِ حياتك. كما أن شوقي شديد جداً إلى رؤيتك.

أودّ أن أبلغك أنني الآن أفكر وأرغب في الالتحاق بكلية لاهوت إن سارت الأمور على ما يرام. أرجو أن تصلّي معي حول هذه المسألة. فإن كانت هذه إرادته لي، فلنصلِ أن يوفر كل حاجة من حاجاتي المتعلقة بهذه المسألة. وأنا بطبيعة الحال أحتاج إلى رأيك في هذا الموضوع. ليباركك الرب بكل غنى. التوقيع- سايكانت كن"

إن اتساع رحمة الله هو الذي يربطنا معاً ويوحّدنا فيه. ويجب أن ينزاح بخلنا الأناني برحمة الله ليفسح المجال لرأفته غير المحدودة بالهالكين! ويمكن أن يكون بخلنا هذا عميق الجذور، كما كان الحال مع يونان. فقد أوصله إلى نقطة يفضّل عندها أن يأخذ الله حياته على أن يضطر إلى الانسجام مع طبيعة الله وطرقه. ليست هذه صورة جذابة ليونان، لكنه قام على الأقل برفع شكواه إلى الله، فسمع الله صلاته. يقول الله ليونان في الآية الرابعة ما معناه: "أنا أسمع صلاتك. لكن هل شكواك مشروعة حقاً؟" لنلاحظ أن الله لا يستجيب لطلب يونان الموت. فما أكثر صلوات قديسي الله الغبية ونحن محظوظون لأن الله في رحمته لا يستجيب لها! فالله يعرف جيداً . . . يعرف كل فكرة من أفكار القلب وكل دافع من دوافعه جيداً. ولا ينخدع الله بطلب يونان العشوائي بأن يموت. فالله يعرف أن هذا مجرد غطاء لمشكلة يونان الحقيقية، ألا وهي الغضب. وهكذا فإن الله يضع إصبعه برفق على خطية يونان. فكأنه يقول له: "كن صادقاً يا يونان. هل لديك سبب وجيه حقاً لغضبك هذا!"

ب. الله يستخدم شيئاً ملموساً ليلقن يونان درساً (4: 5–8)

تكشف الآيات 1–4 أن يونان لم يكن يعرف رأفة الله. أمّا الآيات 5–8 فتبيّن أنانية يونان.

استجاب الله لصلاة يونان، لكن لنلاحظ أن يونان لم يجب عن سؤال الله. لقد كان الله محقّاً: إذ لم تكن هنالك أسس مشروعة أو معقولة لغضب يونان. غير أن صديقنا هذا شخص عنيد، فقد خرج ليجلس على مرتفع يطل منه على المدينة ليرى إن كان الله سينزل الدينونة بنينوى (الآية 5).

ربما كان ينتظر ليرى كم سيبقى أهل المدينة على سلوكهم الجديد . وهو يذكّرنا بشخص آخر عرّفتنا به كلمة الله، ألا وهو الأخ الأكبر للابن الضال. يصوّر لنا مثل الابن الضال صورة لقلب الله الذي يفرح دائماً بعودة أي ابن له. لكن الغريب في الأمر أنه كان هنالك الأخ الأكبر الذي لم يكن كبيراً بما يكفي ليبتهج بغفران أخيه العائد . ويونان شبيه به، حيث إنه لا يجد فرحاً في توبة أهل نينوى. فهو يفتقر إلى التعاطف. وقد أدّت نظرته هذه إلى إثارة استياء الرب. ويلجأ الله إلى شيء ملموس ليلقن يونان درساً يخرجه فيه من الموقف الذي سجن فيه نفسه (الآيات 6-8) .

قد يعتقد المرء أن يونان كان يعاني من مشاكل نفسية. إذ يبدو أن لديه نزعة إلى الانتحار. فهو يريد أن يموت عندما يرى أهل نينوى يتوبون، وهو يريد أن يموت أيضاً عندما تذوي الشجرة الصغيرة التي توفّر له الفيء، معرضةً إياه بهذا لحرارة الشمس الشديدة الحارقة.

كما نلاحظ أن يونان لا يتأخر أبداً عن مواعيد الله: فقد أعد له الله مملكة عظيمة، وشجرة، ودودة، وريحاً شرقية لافحة.

من بين هذه الأشياء الأربعة أحبَ يونان واحدة، فقد قدّر الشجرة كثيراً، بل كان في واقع الأمر أكثر فرحاً بالشجرة منه بتوبة 120.000 شخص هم سكان نينوى. فالشجرة هي مصدر تعزية وحماية، وبدونها كان تعيساً . لكن سبب وجودها لديه هو أن الله رؤوف به. لم يكن يونان يستحق الشجرة. إذْ لم يتعب عليها، ولم يعتنِ بها . لكن الله تحنّن عليه بأن وفّر الشجرة المظلّلة. لم يكن الله ملزماً بإعطائه إياها . غير أن الله كان باراً بنفس المقدار عندما أزال الشجرة المظلّلة. لكن من المؤكد أنه انزعج كثيراً عندما سحب الله رأفته عليه منه. يونان بخيل أناني، يحب رأفة الله، لكن مسألة حصول الآخرين على رأفة الله أمر لا يهمه. إنه بخيل وأناني.

توضيح

كان أحد أساتذتي في الجامعة يقول: "إذا كانت حياة المرء مغلَّفة في ذاتها، فإنها تشكّل رزمة صغيرة جدّاً ."

ج. الحوار الأخير (4: 9-11)

مرةً أخرى سمع الله صلاة يونان. سمع توسّله بأن يموت. فاقترب منه ليتحدث إليه حديثاً قصيراً (4: 9-11). قال له الله "أنت أشفقت على اليقطينة." لكن يونان لم يخلق تلك الشجرة، ولا تعهّدها بالعناية. لم تكن للشجرة قيمة أبدية، فقد كان يونان مهتماً بها ما دامت له فيها بعض الفائدة. لنتأمل طويلاً في كلمات الآية الحادية عشرة: "أفلا أشفق أنا ؟" هذه هي الرسالة الحقيقية للسفر كلّه! لنستمع إلى هذه الكلمات وسنحس بنبض قلب الله نفسه. فهو يقول له ما معناه: "لديّ شيءٌ أود أن أقوله لك. أنت لم تخلق تلك الشجرة.

لكني خلقت كل هؤلاء الناس في نينوى. أنت لم تغذِ تلك الشجرة ولا تعهّدتها برعايتك. أمّا أنا فإني أعطي حياة لهؤلاء الناس يوماً بعد يوم وأعتني بها. وهنالك نقطة أخرى، فأنت أحسست بالحسرة على فقدانك تلك الشجرة، وما هي إلا شيء جمادٌ مؤقت. فكيف تظنني أحس، وأنا الخالق، نحو 120.000 شخص في طريقهم إلى قضاء أبدية بدون المسيح؟"

" أفلا أشفق؟ أفلا أتحنن؟" تأتي هذه الكلمات مدوّية من قلب الله، الإله المحب الذي يريد بكل طاقته أن يسكب رأفته وتحننه على الهالكين. هذا هو قلب السفر. لكنه يكشف أيضاً أنَّ قلب خادم لله لم يتأثر برأفة الله وحماسته في مهماته الإرسالية.
أعتقد أن الله كان يمكن أن يزيد على ما قاله ليونان. كان في إمكانه أن يقول له: "أنت تمنّيت الموت. لكني لن آخذ حياتك. لكن سيأتي وقت آخذ فيه حياة . . . وستكون حياة ابني أنا. أنت تحسّرت على فقدان الشجرة. أمّا أنا فسأحتمل فقدان ابني بسبب محبتي لهؤلاء الذين لم تشفق عليهم."
يجب أن ينزاح بخلنا الأناني برحمة الله ليفسح مجالاً لرأفة الله غير المحدودة بالهالكين!

الخاتمة

أمضينا مع يونان بعض الوقت. هربنا معه عندما أبحر إلى ترشيش. وزحفنا إلى قاع السفينة محاولين الهرب معه. فاكتُشِفَ أمرنا . . . وأُمسكَ بنا ونحنُ نائمون معه، بينما كان يفترض فينا أن نكون صاحين. رفضنا أن نتوب ودخلنا مياه البحر مع يونان. وانزلقنا في بلعوم سمكةٍ كبيرة وتعذّبنا مع يونان. لكننا أدركنا أن الله قادر على تخليص الذين هم له من يأس التأديب، عندما يصرخون إليه ويستسلمون لمشيئته. ومشينا مع يونان داخل مدينة نينوى العظيمة وأذعنا الحق على الذين في الظلمة.

لكن ليته كان في إمكاننا أن نفعل شيئاً أخيراً مع يونان. أعتقد أن قلب يونان قد تغيير بعد حديث الله معه، رغم أن النصّ لا يبيّن ذلك صراحة. وأعتقد أنه تبكّت في قلبه حول نظرته أو موقفه البخيل الأناني الذي يفتقر إلى الاهتمام والرأفة. وأنا أرى أن السفر كله كُتِب كاعتراف من يونان بما تعلّمه من الله، "أفلا أشفق أنا؟" أعتقد أننا إذا أصغينا بانتباه، فإنه سيكون في إمكاننا أن نسمع صوت يونان الخافت، صوت نبي إسرائيل القديم، وهو يقول: "نعم يا رب، أنت تشفق بالفعل على الهالكين. وأنا الآن أشفق عليهم أيضاً."